

الجزيرة العربية قبل عبد العزيز وبعده

الدكتور ظافر بن علي القرني

أستاذ الهندسة المساحية ونظم المعلومات الجغرافية

جامعة الملك سعود

كلية الهندسة

بالرياض

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

١٠٧

أبيات قدم لها سعادة الأستاذ الدكتور:

محجوب عبيد طه أستاذ الفيزياء في جامعة الملك سعود

الفهرس

- الإهداء
- شكر وتقدير
- ما قبل المقدمة
- الملك عبدالعزيز ومبدأ التكامل
- من مظاهر القصيدة
- المقدمة بقلم أ. د. محبوب عبيد طه
- نص القصيدة

إلى أبناء جيلي والأجيال القادمة

أشكر

كل من شجعني على

نشر هذا الكتيب، وكل من ساهم في إخراجته

ب هذه الصورة، وأخص بالذكر معالي مدير جامعة الملك سعود

الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الفيصل، حفظه الله، وسدد خطاه

وأشكر للدكتور شاعرنا الفيضي
ببعض خفايا البحر إني وجدته
توارى عليّ الوزن في غير موضع
ولو أنني في شأن داعٍ من الهوى
ولكنّها الأوطان يعلو مقامها
مراجعة النص الطويل وتعريفي
"خفيفاً" ثقيلاً فيه شيء من الصيف
برغم ارتجالي للقريض وتأليفي
لسيرته من دون جهدٍ على كفي
فملتزم المنهاج من غير تكيف

د. ظافر بن علي القرني

صيف عام ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩هـ

الرياض

ما قبل المقدمة

الملك عبد العزيز ومبدأ التكامل

كتب الكثير عما قام به الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله من أعمال جليلة في سبيل توحيد هذه البلاد، ولمّ شملها حتى أصبحت مضرب المثل في عصره وفي عصر من تلاه من أبنائه البررة الذين ساروا على نهجه في بناء هذه المملكة الفتية حفظها الله ونصرها بالحق، ونصر الحق بها إنه سميع مجيب. ومما يتفق عليه الكتاب والمؤرخون، وغيرهم ممن عاصر الملك عبد العزيز هو إيمانه بالله جلّ وعلا، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلّم، واعتزازه بالانتساب إلى هذا الدين العظيم، والدعوة إليه بالموعظة الحسنة، والاستعداد للدفاع عنه، والجهاد في سبيله بالنفس والمال والولد. ولهذا الإيمان ثمار كثيرة لا حصر لها. منها التوكل على الله، في كل شأنٍ من شؤون الحياة، ومن يتوكل على الله فهو حسبه. ومنها عدم احتقار الناس أو التهوين من شأنهم، أو احتقار بلادهم. فصاحب الإيمان له نظرة ثابتة تختلف عن نظرة مفتقره. ولدى صاحب الإيمان إنما يزكو الإنسان بصلاح عمله، أو يجنب بحبثه. أما لدى مفتقره، فيزكو الإنسان أما بنعرة قبلية، أو لغوية، أو لونية، أو غيرها من النعرات الممقوتة التي يمقتها الله ورسوله. ولو نظر الملك عبدالعزيز رحمه الله إلى شيء من هذه النعرات باعتبار، لما توحدت البلاد التي نرها اليوم آمنة مطمئنة لا تخاف إلا من الله جلّت قدرته، ولا تعبد إلا هو.

إذن، متى ما قرّر الإيمان في قلب المرء كانت نظرته للحياة والناس نظرة شاملة محكمة بمعيار واحد هو تقوى الله، والعمل بما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم. وبهذا تطمئن النفس إلى المرء المؤمن الصادق المخلص لربه، فلا تخاف منه خيانة، ولا غدر، ولا كذب. وتنعكس آثار هذه النظرة الصادقة على الحياة عامة، فترى الناس في وئام وتكاتف وتعاون على البر والتقوى. هذا هو المجتمع الذي أنشأه الملك عبد العزيز بفضل من الله وتوفيقه، مجتمع متعاقد متكامل. وواجبنا عظيم وجليل في المحافظة عليه، وتنمية صلاحه، وزكاته، حتى يبقى منارة من منارات الحق في هذه الحياة الدنيا، بإذن الله.

بعض مظاهر القصيدة

عندما نكتب عن الملك عبد العزيز رحمه الله، فإنما نكتب عن الوطن. والكتابة عن وطن يدين بشرع الله الذي ارتضاه لرسله فخر أيما فخر وشرف أيما شرف. لكن الإنسان يعجز أن يفهم بما يود أن يفهم به، لأسباب معلومة، منها النقص الذي يعتوره ويلزم أعماله وأفعاله، فالكمال لله وحده.

ومن فوائد التجربة العلمية، أن أسلوب المقارنة بين شيئين أو وضعين هو من أحسن ما يجعل الصورة جليةً عند المستمع أو القارئ. والشعر يشير إلى ذلك إذ هو سابق للتجربة، متوثب إلى مكان الجهول قبلها. أو لم يقل القائل: "وبضدها تتبين الأشياء"، بلى. لذا عمدت إلى أسلوب المقارنة في هذه القصيدة مستقيماً معلوماً أحد الوضعين ممن عاشوه وعانوا مشقاته وصعابه، ولا يزال كثير منهم بيننا اليوم، ومعتمداً في الثاني على ما أعيشه أنا وأترابي من أمن ورخاء واستقرار. فكانت هذه القصيدة التي تواكب مرور مئة عام على بداية تأسيس المملكة العربية السعودية، المسماة بـ "الجزيرة العربية قبل عبد العزيز وبعده". أرجو من الله جلّة قدرته، أن يتقبل أعمالنا، وأن يتجاوز عن سيئاتنا، أنه سميع مجيب الدعاء.

ولا أطيل عليك، أخي القارئ، فأكتفي بذكر أهم مظاهرها، فأقول ما يلي:

- أنني لم أعمد إلى إطالتها، إنما تركتها على سجيته، ولو شئت لجعلتها أطول، فالموضوع غني، ثري لا يأتي القلم عليه شعراً. وبالرغم من طولها النسبي، فإنها تكاد تكون أسهل القصائد قولاً، والحمد لله على ذلك.

- أنها تعتمد إلى أسلوب المقارنة الصادقة بين فترتين زمنيّتين مقصودتين، هما أواخر حكم الدولة العثمانية، وما بعد استعادة الرياض من قبل الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله.
- أنها تزيد عن المئة بسبعة أبيات فقط، وما جعلت ذلك إلا تمييزاً لها عن غيرها من ذوات المئة التي لم تخل هذه المناسبة الكريمة منها.

المقدمة

بقلم الدكتور محبوب عبيد طه
قسم الفيزياء - جامعة الملك سعود.

لي بالمملكة الآن ثلاث وعشرون سنة، كلها بقسم الفيزياء بجامعة الملك سعود بالرياض. وهي أكثر سنوات مرحلة النضج من العمر، وجزء معتبر من مستودع الذكريات والتجارب. ولعل أوضح ما في هذا المستودع مما يخص صليتي بهذه البلاد، الصورة الأولى التي ظهرت بها في وعيي والتغيرات الكبيرة التي اعترت هذه الصورة بمرور السنوات.

سمعت عن هذه البلاد أول ما سمعت من حكايات جدي في سنوات العمر الأولى، إذ كثيراً ما كان يرد فيها ذكر الحجاز ورحلات الحج ومشاقها. وعزّز هذه الحكايات ما شهدته في هذه المرحلة من العمر من استقبال القرية للحاج العائد بالدفوف والطبول والزغاريد، مع تزيين باب داره الخارجي بالطلاء الأبيض وكتابة عبارة "حج مبرور وسعي مشكور". ولعل سعيي لدار الحاج بُرْمرة أو مرتين بطاقيّة أو سبحة أو جرعة زمزم مما جلبه الحاج من الحجاز.

ثمّ انقضت فترة من العمر لم أضف فيها لمعلوماتي عن المملكة كثير شيء، إذ كانت أغلب سنوات دراستي قبل الجامعة أبان عهد الاستعمار ولم تحوِ المقررات الدراسية شيئاً ذا بال عن أي من البلدان العربية أو الإسلامية. وجلّ ما سمعته عن هذه البلاد وبقي في الذاكرة - من هذه الفترة - كان عن طريق المذيع والصحف، بسبب الاضطرابات السياسية والانقلابات العسكرية، فلم يكن للمملكة منه نصيب. ثمّ التقيت في بداية دراستي الجامعية ببريطانيا في أوائل الستينيات بعدد من طلاب الخليج وهم الطليعة في العهد الجديد لهذه المنطقة، فتعارفنا وتبادلنا المعلومات وتحدثنا عن الآمال والأمنيات والأحلام. وبعد عودتي للسودان فهمت أن أموراً كثيرة بدأت تتحرك في اتجاه تطوّر حثيث لدول الخليج وللمملكة العربية السعودية على وجه الخصوص.

وظهرت حركة هجرة السودانيين إلى هذه المنطقة من كافة القطاعات والخبرات، استجابة لحاجة التطور التنموي والعمري فيها للأيدي العاملة والقيادات المدربة. ولم يكن بحسباني أن انضم لهذا الركب! غير أنني تلقيت في عام ١٩٧٣م دعوة كريمة، لا أعلم لها سبباً، من معالي الشيخ حسن آل الشيخ، تغمده الله بواسع رحمته، وزير التعليم العالي آنذاك لزيارة وزارة التعليم العالي وجامعة الرياض وجامعة الملك عبد العزيز، في مقريهما السابقين. وأتاحت لي الزيارة ومقابلة الشيخ الجليل الوقوف على مخطط تطور مؤسسات التعليم العالي بالمملكة. ثم تلقيت دعوة كريمة أخرى في عام ١٩٧٤م، من جامعة الرياض، لحضور مؤتمر "التضامن الإسلامي في العلوم والتقنية"، وكان تجمعاً عالمياً كبيراً تحدث فيه العلماء والمهندسون المسلمون عن تطورات مستقبل نمو العالم الإسلامي في مجالات العلوم الطبيعية والتقنية والتصنيع. وكانت هذه السنوات بداية مرحلة التطور المذهل للمملكة في كافة نواحي الحياة الحضارية ومناشط اهتمام الإنسان المعاصر.

وعندما عدت للعمل بجامعة الرياض في عام ١٩٧٦م، على سبيل الإعارة لمدة عامين، كانت النية العودة لمقر عملي بجامعة الخرطوم فور انتهاء فترة الإعارة. وانقضى العامان ثم انقضى عقدان أسست خلالهما المملكة، بتوفيق الله ثم حسن التدبير، دعائم نهضة شامخة شاملة في مجالات الصناعة والزراعة والتعليم والبنيات الأساسية اللازمة لمجتمع عصري متكامل.

هذا طرف من ذكريات صليتي بهذه البلاد.. ذكريات أثارها قراءتي لقصيدة الشاعر المهندس الدكتور ظافر القرني في الذكرى المئوية لتأسيس المملكة. وهي قصيدة تسرد ماضي النقم وتشكر حاضر النعم، تحكي عن تحقيق الأمنيات وإنجاز المعجزات، وتعبر عن الأمن والاستقرار بعد الخوف والاضطراب، وعن رغد العيش وصفوه بعد شظفه وكدره. والشاعر من رجال العلم والأدب، له في كل صولة. ويعرف كما يعرف أهل الإبداع في فنون العلم والأدب ما للأمن والاستقرار من أهمية قصوى.. بل ضرورة لازمة.. لازدهار العلوم والآداب والفنون. وهو ازدهار نشهده ونجني ثماره اليوم: نشهده في غزير الإنتاج البحثي والعلمي الذي يُنشر من داخل

المملكة في الدوريات العلمية والعالمية المتخصصة، وفي تتابع ظهور مجالات الثقافة والفكر والفنون، وفي المؤتمرات والمهرجانات والمعارض التي تزخر بها قائمة النشاط الفكري في المملكة في كل عام. يقول الشاعر القريني:

وتنامى الفلاح في النَّاسِ جهراً بعد كبح الفلاح بالأصْفادِ
وجرى العلم في العقول بحدٍ واجتهادٍ من بعد كسر القيادِ
إيه والله بعد رعدٍ وبرقٍ فاق قدح العقول قدح الزنادِ

وهذا كله، الأمن وال عمران والفكر والعلم، من ثمار توحيد الملك عبدالعزيز لهذه البلاد. وتوحيدها ليس كتوحيد سواها، فهي ثقل الإسلام وقبلة المسلمين، وفي عزتها وسؤددها عزة وسؤدد كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. لقد اعترت بلاد المسلمين عامة وبلاد العرب خاصة هزات عنيفة واضطرابات جسيمة منذ أن توحدت المملكة، ولم ينل أي منها من البنين المتين الذي أرساه الملك عبدالعزيز على قاعدة قوية ثابتة: شريعة الله رب العالمين. الذكرى المثوية لهذا التوحيد مناسبة عزيزة، وأجدر أن نذكر فيها أنفسنا بما للحكم بشرع الله من أثر بعيد في نفوس البشر وعلى أرض الواقع، متى خلصت النوايا وصحت العزائم وصدقت الهمم.

أ. د. محجوب عبيد طه

قسم الفيزياء - جامعة الملك سعود.

نص القصيدة

حالها لا يسرّ إلا الأعادي أهل سود الرؤى وسود الأيادي
 كان فيها النحيبُ في كل دارٍ والعويل العويل في كل نادٍ
 والرزايا تترى من الجار للجا ر ، مع المهلكات في كل وادٍ
 في نظامٍ لا يستقر به المرء ء ولا يستبين آي الرشاد
 فيه يشكو القوي جورَ نوي البطش فما بال ذي رقاعٍ همداد
 والحليفُ الحليفُ بالأمس ضدَّ في غدٍ لحليفه المتمادي
 في الضلالات ظاهرٌ لا يبالي فوقود الأفعال حبّ الفساد
 غارةٍ إثر غارةٍ إثر أخرى ترهق المرهقين من كل صادٍ
 لدماء العباد أيان ما يممت ، أهل القرى وأهل البوادي
 أي يومٍ يأتي عليهم بلطفٍ وسلامٍ ولم يناد المناد
 هو يومٌ أقل من أن يُسمى قلت: إلا بمثل يوم الرقاد
 نعمةٌ تستخف كلَّ خفيفٍ وترد الثقيل من غير هاد
 يقبل الجحفل المعزز منهم همّة غزو أهل تلك الثماد
 فإذا لم يجد بها القوم قومًا أكلوا بعضهم بغير هوادٍ
 نزعةٌ في الخراب ذاتية الإيب غال جبارة القوى في العناد
 واعتقاد الصلاح أندر في الإنس من عيش نحلةٍ في جراد
 ينهض المرء وهو بالموت يدعو إن تراءى للعين بعض السواد
 وترى المرء يستحلّ دماء الرّ كب من أجل حاجة في البجاد
 وترى السارق الممارس فيهم عالي الشأن للملمات حادٍ
 والرديء الذي يكفّ عن الغا رات والحرّ من يجيء بيزاد

والسعيد الذي إذا مجّه النور مُ سيحظى في ليله بسهاد
 وعلى الجوع عامل الجهل يسري في دماء العباد مثل الغوادي
 وإذا ما تضافر الجهل والجو عُ فقل ما تشاء دون اجتهاد
 وازع الدين قلّ في أكثر النّاس س فأضحى الهراء مثل السداد
 ومن النّاس من تلوى بشيءٍ يتقي منه ما لرب العباد
 من علوٍ وأخذةٍ لذوي الشر كٍ ومحق لكل ذي إلحاد
 ضلّ من ضلّ عن هدى صاحب الفرقان والآخرين حول المهاد
 صح جذر الصلاح في كل أرضٍ غير أن الفساد ملء الوهاد
 ويشاء الإله ذو الحول، والطّو ل إله الحياة رب الجماد
 مالك الملك من يعود له الأمم ر جميعاً والحكم يوم التنادي
 عالم الغيب جاعل البحر رهواً داحي الأرض تحت سبع شداد
 أن يقوم الفتى من الشرق للغر ب فيرسي دعائماً لا تماد
 ذاك عبد العزيز، وابن سعودٍ نعم ذكر الفتى وذكر الجهاد
 ما ثنته الصعاب عن لمّ شملٍ قد ثنت غيره برغم العتاد
 إن خير العتاد تقوى، وخير الـ مال صبر الغيور عند الجلاد
 دعوة الحق زاده وهداهُ وهي تغني عن رفة الرّفاد
 رب إن كنت في هدى فأعني فأنا ما أتيت للاضطهاد
 إنما جنّت قاطعاً دابرَ الشرِّ مثيراً لكل شهيم جواد
 إنما جنّت جاعلاً راية التو حيد خفاقةً على الأطواد
 حاكماً بالكتاب والسنة الغر اء فيمن معي وفي أولادي
 مرحباً بالمجيء قائلته نجدُ وتتالت من بعد كل النّجاد

وتنادت له العشائر من تيب - ما إلى ما وراء ذات العماد
ومن البحر قام داع إلى البحر - وما هاب كثرة الأعداد
كلما قام، قام نصرٌ من الل - ه فتخبو مواقد الأحقاد
ويشَاء الإله لم شتاتٍ بعد عصر من البلاء البادي
فإذا الأرض روضةً والليالي - عامراتٍ بعامرٍ مستفاد
وإذا علة التناذب بالأم - س هي اليوم علة الاتحاد
ويعمّ الرخاء أرجاء أرضٍ - يئست من سيوله والعهاد
وترى العين خاطر السوق ظهراً - بعدما كان عرضةً للعوادي
من عدوٍ إن لم يكن من بعيدٍ - فمن الدار من شريك التلاد
ويحج الإنسان والأمن يحدو - ه وقد كان موقناً بازدراد
من جحود يستمرئ النهب والفت - ك إذا لم يفز ببعض المراد
وترى ذاك من تضور بالأم - س وقد طال عهده بالرماد
في سرورٍ يقول فيمن يليه - ذاك لابني وذاك للأحفاد
وترى الشيخ جاهراً بالنوامي - س وقد كان قبل هذا يُرادي
وإذا بالصلاح في كل وادٍ - ينذر المفسدين بالإبعاد
ويسود الحياة عهدٌ من الأم - ن وكنّا نظنّه في بداد
عاد رب العيال في الحقل يشدو - وعلى الغصن عود الطير شاد
المودات بعد عصر العداوا - ت ولا كيد بعد عصر الوداد
وتنامى الفلاح في الناس جهراً - بعد كبح الفلاح بالأصفاد
وجرى العلم في العقول بجدٍ - واجتهادٍ من بعد كسر القياد
إيه والله بعد رعدٍ وبرقٍ - فاق قدح العقول قدح الزناد

فإذا الازدهار في كل شبرٍ يطرد الانهيار بعد احتشاد
 ويشق الطريق نحو سموٍ وشموخٍ يليق بالاعتداد
 ونمو الحقول في أي أرضٍ من نمو العقول والأجساد
 عاين المنجزات في بعض قرنٍ من رآها يقول في آماذ
 كل فردٍ له من الخير جزءٌ ونصيبٌ يزيد بالاجتهاد
 قلّ لذي الخاطرات مهلاً فإننا لا نبالي بلوثة الحساد
 نحن في عصر نعمة وسعودٍ بعد عصر الإعدام والافتقاد
 ذاك فضلٌ من الذي يملك الفضل ومن ليس ماله لنفاد
 هو من ردنا إلى فضل علمٍ إي وردّ السيوف في الأعماد
 وهو الله رازق الناس طرّاً من حباننا بفائض الاقتصاد
 في بلادٍ نخالها في ضياءٍ ووئامٍ للجهل بالمرصاد
 إنما الأرض خيمةٌ تحتوي النّاس وتؤوي والنّاس مثل العماد
 ذاء، وأرضي معاهدٌ للحضارات وللبيئات من قبل عاد
 وبها سيد الأنام نبي الله والمسجدان أصل المداد
 أيها المستهام في الأرض عذراً أي شيء وجدته في البلاد
 دونها نركب الصعاب احتساباً والشظايا تقض وجه المعادي
 قد خبرنا الحياة في الموت عنها وتلقّي السهام فوق الجياد
 ما هربنا والموت يعتام فيها أنقفي والخير فيها ينادي
 نحن كلّ نقوم في نائب الدهر إذ الضعف ناتج الانفراد
 أثمر الجهد دولةً ذات شأنٍ تتنامى شئونها باطراد
 دولة الخير تنتشر الخير في النّاس وما زال فضلها في ازدياد

ورضاها علو كل تقي وتردي راعي الهوى المياد
وجدير بدولة تنتشد الإسـ لام أن تستمر في الأمجاد
قام بعد المؤسس الفذ فيها نخبة من ملوكها الرواد
من سعودٍ وفيصلٍ وأخيهم خالدٍ من مضوا لدار المعاد
وإلى فهدنا المؤزر بالراً يات والسابقات في الإسعاد
أي فعلٍ أحب من خدمة البيـ ت ونشر القرآن في الأشهاد
وكذا النيران بالشور والأخـ لاص والمرهفات يوم الطراد
من ولي لعهد ذاك عبد اللـ هـ سمح الخصال، ضد النكاد
إي وسلطان قوة في يد السلـ طان يعلو بها على الأضداد
وإلى كل فاضل من ذوي الأمم جاد من حاكمين أو أفراد
أيها الناس بعد هذا التسامي لا يكون الفلاح بالارتداد
إنما الرشد والفلاح بتقوى اللـ هـ والاستماع والانقياد
لإله السماء والخالق المختا ر حقا وحاكم ذي اعتقاد
بمراد الشريعة السمحة الغر اء، شرع الأباء والأجداد
نحن إن لم نقم بما أمر الرّحـ من عُدنا بضاعة في المزداد
قلنتها مخلصاً، بفكرٍ قويمٍ وعلى الله نصرتي واعتمادي
كيف لا أملاً المحافل شعراً وبلادي مكانها في فؤادي
تمّ قرنٌ وكل عامٍ ببيتٍ فحصادٌ مقابلٌ لحصاد
ذا، ولولا الإملال بالقول زدنا فحديث الأوطان كالأعياد
وحصاد السنين أوضح في التـ بيان للعالمين من إنشادي
غير أنني حبوت قومي بهذي معرضاً عن تعالم النُقّاد

ولهم صغتها من الشعر متناً خالياً من ظواهر الإجهاد
وسبقت الشروع فيها بذكر الـ له ثم اختتمت بالأورادِ
وبسبعٍ ميزتها عن حسانٍ قد ترى حظها من الأندادِ